بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله معزِّ مَن أطاعه واتَّقاه، ومذلِّ مَن خالف أمره وعصاه، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّه ومصطفاه محمدًا صاحب الفضل والجاه؛ **وبعد:**

إن لهيب الحرب بين الحق والباطل لن ينطفئ أبدًا، بل هو باقٍ ما بقي أهل الحق متمسكين بحقهم، ولكن هي سنة الله منذ أن خلق هذه المعمورة؛ فالحرب سجال والأيام دول، والغلبة لأهل الحق لا محالة ولا شك، وقد حمل لواء هذه المعركة المصيرية ثلةٌ من الغرباء الضعفاء بأنفسهم، الأقوياء بتوكلهم على ربهم، ففتح الله لهم البلاد وقلوب العباد، فعَلا صوت التوحيد والإيمان وارتفع، فتحشدت لإسكاته وكتم صوته كل أمم الكفر بحدها وحديدها، مستعينة بالإنس والجن في صورة لم يشهد لها التاريخ من سابقة ولسان حالهم يقول: "اعْلُ هُبَل لَنَا العُزَّى وَلا عُزَّى لَكُم"، فاستعرت الحرب وحمي الوطيس بين جند الرحمن وأولياء الشيطان ولسان حال جند التوحيد يردد: «**اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**»، «**اللَّهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ**»[1]، فاشتدَّ الكرب وعظم البلاء، فانحاز المجاهدون من مناطق كثيرة ليس بسبب عدة أهل الباطل ولا عددهم بل هم الأذلاء الضعفاء وأهل الحق هم الأعزة بدينهم وتوحيدهم، قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [المنافقون: 8].

(1) أخرجه البخاري (4/ 65) برقم: 3039.

ولكن هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا، قال تعالى: ﴿**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [آل عمران: 140].

يقول سيد قطب رحمه الله: "لقد أصاب المسلمين القرح في هذه الغزوة وأصابهم القتل والهزيمة، أصيبوا في أرواحهم وأصيبوا في أبدانهم بأذى كثير، قتل منهم سبعون صحابيًا وكسرت رباعية الرسول ﷺ، وشج وجهه وأرهقه المشركون وأثخن أصحابه بالجراح.. وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس، وصدمة لعلها لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر حتى لقد قال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم: "أنى هذا؟" وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟!.. والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعًا في الحياة؛ فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافًا، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع"(2).

ولنا في هذه الغزوة العظيمة دروس وعبر؛ فعندما تعجب المسلمين من تسلط الكفار عليهم وانتصارهم جاء الجواب الإلهي الرباني هو من عند أنفسكم ومن معاصيكم وذنوبكم وظلمكم، قال تعالى: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: 165].

قال ابن عباس: حدَّثني عمر بن الخطاب قال: "فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ عُوقِبُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخْذِهِمِ الْفِدَاءَ"(3).

إن مآل الظلم شر مستطير، وعاقبته وخيمة عامة؛ فهو سبب هلاك الهالكين وانهيار ملك الحاكمين.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

إِذَا مَـا ظَـالِمٌ اسْتَحْسَـنَ الظُّلْـمَ مَـذْهبًا وَلَجَّ عُتُـــوًّا فِي قبـــيحِ اكْتِســـابِهِ

(2) في ظلال القرآن (1/ 450).

(3) أخرجه أحمد (1/ 30) برقم: 208.

فَكِلْـــهُ إلى صَـــرْفِ اللّيَـــالِي فَإنَّهَـــا ستبدي لـه مـا لم يكـن في حسـابهِ
فَكَـــمْ قَـــدْ رَأَيْنَـــا ظَالِمًـــا مُتَمَـــرِّدًا يَـرَى الـنَّجْمَ تِيهًـا تَحْـتَ ظِـلِّ رِكابِـهِ
فَعَمَّـــا قليـــلٍ وَهْـــوَ في غَفَلاتِـــهِ أَنَاخَـــتْ صُـــروفُ الحادِثَـــاتِ بِبابِـــهِ
فَأَصْـــبَحَ لا مَـــالٌ وَلاَ جـــاهٌ يُرْتَجَـــى وَلا حَسَـــناتٌ تَلْتَقـــي فِي كتَابِـــهِ
وجُـوزي بـالأمرِ الـذي كـان فـاعلًا وصـبَّ عليـهِ الله سـوطَ عذابـه[4]

وقال ابن تيمية رحمه الله: "وَأُمُورُ النَّاسِ تَسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْعَدْلِ الَّذِي فِيهِ الِاشْتِرَاكُ فِي أَنْوَاعِ الْإِثْمِ، أَكْثَرُ مِمَّا تَسْتَقِيمُ مَعَ الظُّلْمِ فِي الْحُقُوقِ، وَإِنْ لَمْ تَشْتَرِكْ فِي إثْمٍ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: إنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً؛ وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ، وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ... وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ نِظَامُ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا أُقِيمَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِعَدْلِ قَامَتْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمَتَى لَمْ تَقُمْ بِعَدْلِ لَمْ تَقُمْ، وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِهَا مِنْ الْإِيمَانِ مَا يُجْزَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ"[5].

قال أبو الفتح البستي:

عَلَيْـــكَ بِالْعَـــدْلِ إِنْ وَلَّيْـــتَ مَمْلَكَـــةً وَاحْـذَرْ مِـنَ الْجَـوْرِ فِيهَـا غَايَـةَ الْحَـذَرِ
فالملـك يبقَـى علـى عـدلِ الكفـورِ ولا يبقَى مع الجوْرِ في بدْوٍ ولا حَضَرِ

وقال القرطبي: "فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وانجلائهم منها، وترفع من الأرض البركة"[6].

ولما كان ما تقدم ذكره من أسباب الهزيمة، كان من أسباب النصر علاجه والنهي عنه، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود: 117].

والإصلاح يشمل معالجة أسباب الظلم والمنكر، وأولها وأهمها "بطانة السوء"، فهي منشأ الضلال وسبب البلاء.

(4) المستطرف (2/ 117).
(5) مجموع الفتاوى (28/ 146).
(6) تفسير القرطبي (9/ 334).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلاَّ لَهُ بِطَانَتَانِ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ**»[7]، وهذه البطانة تشمل كل من ولي أمرًا من أمور المسلمين، سواءً كان سلطانًا أو قاضيًا.

ومن أسباب النصر أيضًا: الاعتصام بحبل الله والاجتماع عليه، والولاء فيه والبغض فيه، والابتعاد عن التنازع والجدال، وترك الأمور لأهلها، والسمع والطاعة بغير معصية، ونبذ الفرقة، قال تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ [آل عمران: 103].

وعدم الالتزام بهذه الأوامر الإلهية ستكون عاقبته كارثية، وهي ضياع شوكة المسلمين ودولتهم وتفريق جماعتهم، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [الأنفال: 46]، قَالَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ: "الرِّيحُ: الدَّوْلَةُ، شُبِّهَتْ فِي نُفُوذِ أَمْرِهَا، وَتَمَشِّيهِ بِالرِّيحِ فِي هُبُوبِهَا، فَقِيلَ: هَبَّتْ رِيَاحُ فُلَانٍ، إِذَا دَالَتْ لَهُ الدَّوْلَةُ، وَنَفَذَ أَمْرُهُ"[8].

وعليه؛ فإن السبيل للوصول للغاية العظمى والهدف المنشود مقدمات ومتطلبات وشروط، أولها الصدق والإخلاص واتباع سبيل المؤمنين، وعمل الصالحات، قال الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾ [النور: 55]؛ فهذا وعد من الله تعالى للمؤمنين عامة بأن يجعلهم خلفاء في الأرض وسادة عليها، قاهرين لأعدائهم أعداء الله، إذ هم صلحوا وأصلحوا وأقاموا الدين الحق، بلا إفراط ولا تفريط.

﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾ [القصص: 5، 6].

(7) أخرجه البخاري (8/ 125) برقم: 6611.

(8) تفسير الكشاف (2/ 215).

كَتَبَه:

أبو سراقة الهاشمي

الخميس 20 جمادى الآخر 1439 هـ – 8 مارس 2018 م

❊ ❊ ❊

1439 هـ | 2018 م

الوفاء

مؤسسة الوفاء الإعلامية